

مشهد من نيبو:
كيف يعيد علم الآثار
كتابة التوراة وتشكيل الشرق الأوسط*

The View from Nebo: How Archaeology is Rewriting the Bible and Reshaping the Middle East

Amy Dockser Marcus

Boston: Little, Brown, 2000. 295 pages. \$25.95 cloth.

اكتشاف التوراة:
رؤية علم الآثار الجديدة
لإسرائيل القديمة وأصل نصوصها المقدسة*

The Bible Unearthed: Archaeology's New Vision of Ancient Israel and the Origin of its Sacred Texts

Israel Finkelstein and Neil Asher Silberman

New York: The Free Press, 2001. 385 pages. \$26.00 cloth.

إن ما حدث من نهب لمتاحف بغداد ومن تدمير للسجلات التاريخية التي لا تقدر بثمن في المكتبات والمتاحف في أنحاء العراق كافة، ما هو إلا تذكرة مرعبة بالكابوس في قصة جورج أورويل، "1984"، حيث كان شعار الحزب في أو شينيا "من يسيطر على الماضي يسيطر على المستقبل، ومن يسيطر على الحاضر يسيطر على الماضي." والأمة التي ليس لها ماضٍ ليس لها مستقبل، أو فقط مستقبل يمكن أن تمليه القوى الإمبريالية أو الاستعمارية التي تسيطر على الحاضر. لقد غلب على الدراسات التوراتية وعلم الآثار التوراتي "قتال بشأن التاريخ"، إذا استعرنا عبارة أطلقها لوسيان فيفر (*Combats pour l'histoire* [Paris, 1953])، للسيطرة على ماضي فلسطين القديم وتمثيله، بما له من عواقب على الحاضر والمستقبل. ويحاول هذان المجلدان أن يقدموا إلى الجمهور الواسع بعض الشخصيات والقضايا التي تبرز في نقاش متزايد العدوانية والإساءة تمكّن من الإفلات حتى الآن من حدود المنشورات المتخصصة والمؤتمرات الأكاديمية.

* المصدر: *Journal of Palestine Studies*, vol. xxxiii, no.1 (Fall 2003), pp. 97-98.

لقد أنتجت آمي ماركوس، مراسلة صحيفة "ول ستريت جورنال" السابقة في الشرق الأوسط من تل أبيب، رواية مكتوبة بشكل جيد عن موضوع معقد من الناحية التقنية، وأغنتها بمقابلات مع شخصيات بارزة كثيرة. ويغطي المجلدان بعض جوانب الأرضية نفسها عن طريق يسرائيل فينكلشتاين، وهو واحد من علماء الآثار الإسرائيليين البارزين الذين قاموا بدور مهم في رواية ماركوس، ونيل سيلبرمان، الكاتب الذي قدم بعض أكثر الأعمال التي تظهر فهماً معمقاً لسياسة الأبحاث التوراتية والآثارية. ويوجد في صلب كلا المجلدين وصف لمقدار التغيير الجذري الذي طرأ في الأعوام الأخيرة على تاريخ إسرائيل القديم. وسيفاجاً الذين لا يألون هذه الجدالات عندما يكتشفون أن أسس دراسة تاريخ إسرائيل القديمة كما أعيد بناؤها بشكل موثوق به باستخدام التوراة، قد تقوضت تماماً: ثمة أدلة تاريخية قليلة على الصورة التقليدية للحكام، أو للخروج، أو لفتح كنعان، أو لمملكتي داود وسليمان. وهذه هي القصص التي ألهمت التصورات الغربية لفلسطين طوال قرون، والتي تمأسست إلى درجة كبيرة بحيث أنها بدت حصينة ضد التحدي. إن هذه القصص المثيرة أيدت الجاذبية القوية لـ "الحق التاريخي" في امتلاك فلسطين الذي تستند إليه سياسات دولة إسرائيل الحديثة، والدعم الذي تلقاه في الغرب من دون تفكير. وتظهر ردة الفعل الشديدة على هذا التحدي للصورة التقليدية، وهو التحدي الذي وثقته ماركوس بشكل جزئي، كم هو عميق ارتباط الحاضر ومن ثم المستقبل بتمثيل الماضي.

يحاول فينكلشتاين وسيلبرمان شرح لماذا تختلف الصورة التوراتية بشكل مثير جداً عن الصورة التاريخية التي يرسمها اليوم عدد متزايد من الباحثين. وهما يزعمان، بصورة أساسية، أن "الجوهر التاريخي للتوراة" (ص 221)، كما يسميانه، كُتب خلال حكم يوشع، ملك يهوذا في القرن السابع قبل الميلاد. وهذه الروايات تنظر إلى الماضي الذهبي المثالي، ولا سيما عهد داود وسليمان، كجزء من التبرير الأيديولوجي لإصلاحات يوشع الدينية وطموحاته السياسية إزاء خلفية من التهديد الإمبراطوري للمنطقة من جانب آشور ولاحقاً بابل (هذا هو القسم الأضعف من الكتاب لأن تخميناتهما بشأن موقع النص التوراتي في بلاط يوشع تكرر الكثير من المشكلات المنهجية التي ادعى فيها باحثون سابقون أن قسماً كبيراً من التوراة انبثق من الكتاب في بلاط داود وسليمان). وفي الفترات اللاحقة، وخصوصاً بالنسبة إلى من كان في المنفى، ساعد التاريخ الذي أعيدت كتابته في تعزيز الإحساس بالهوية والحفاظ عليه. ووفرت قصص إبراهيم والخروج وفتح كنعان ادعاء مهماً للمطالبة بالأرض بالنسبة إلى العائدين من المنفى. ويرى المؤلفان أن تلك الفترة المتأخرة من تحرير التوراة تكرر الكثير من موضوعات نسخة يوشع: "وقد فعلوها بصورة رائعة مرة ثانية بإعادة تشكيل الجوهر التاريخي للتوراة بطريقة يمكن أن تخدم كمصدر رئيسي للهوية والدعم

الروحاني لشعب إسرائيل بينما يواجه الكوارث الكثيرة والتحديات الدينية والتشويهات السياسية للمصير المائلة أمامه" (ص 313). ومن المفارقة بطبيعة الحال، أنه على الرغم من هذا الفهم الشائع لتطور التوراة، والذي يشدد على حق عودة المنفيين بعد دمار القدس سنة 586 قبل الميلاد، فإن حكومة إسرائيل تنكر حق عودة اللاجئين الفلسطينيين المنفيين منذ سنة 1948.

تقدم ماركوس بأسلوب حيوي كيف تحافظ هذه القصص على قوتها في الحاضر، وكيف يلهب القتال بشأن التاريخ المشاعر. وكما في الماضي، ترتبط هذه القصص ارتباطاً شديداً بتطور الوعي القومي داخل إسرائيل الحديثة. وهي تروي كيف أن الحفريات في جبل عيبال، حيث ادعى الحافر أنه عثر على مذبح مرتبط بيشوع، أصبحت محور الحق الإسرائيلي بالنسبة إلى البعض. وقد أفيد عن أن شوكي ليفين، الذي يوصف بأنه المسؤول عن أمن المستوطنات اليهودية في المنطقة، قال: "هذا هو ماضينا... ويجب أن يبقى ماضينا بين أيدينا" (ص 103). لقد ازدادت حدة الترشق بين الباحثين في الأعوام الأخيرة حين تحول محور النقاش إلى فترة داود وسليمان، لأن هذه الفترة تؤدي دوراً مركزياً في التماس "الحق التاريخي" كما توضح الاحتفالات بالقدس 3000، أو التصريحات الكثيرة للناطقين باسم الحكومة الإسرائيلية عن السيادة على القدس. ونظراً إلى جسامه الرهان، ليس من المفاجئ أن نعلم أن الذين تحدوا الصورة التقليدية التي تستند إلى التوراة يعانون الهجوم على سلامتهم العقلية، والادعاء أن عملهم معاد لإسرائيل، أو معاد للصهيونية، أو معاد للسامية. وقد لحق الخزي والعار بفينكلشتاين نظراً إلى الدور المركزي الذي أداه في نشر البيانات الأثرية الجديدة وأبحاثه الجريئة. وتشير ماركوس، في محاولتها التوصل إلى أرضية مشتركة بين ما تراه طرفي نقيض، إلى أن أولئك الذين شككوا في تاريخانية الروايات التوراتية، وغالباً ما يطلق عليهم لقب "الأصغريين" تحقيراً، لم يحصلوا على التكريم الذي يستحقون عما أنجزوه. وهي تقول: "خلاصة القول إنهم كانوا على حق في الغالب عندما يتعلق الأمر بالصورة الكبيرة. فكثير من أفكارهم التي كانت تعتبر بعيدة الاحتمال، أصبح الآن مفاهيم التيار السائد الراسخة" (ص 120).

إن بناء الهوية القومية عن طريق التماس الماضي ليس محصوراً بإسرائيل الحديثة بطبيعة الحال. فقد كشفت ماركوس كيف أن علم الآثار يعطي صورة أكثر إيجابية للشعوب المحلية التي نزلت في عمون وأدوم ومؤاب القديمة، وكان ينظر إليها تقليدياً على أنها عدوة إسرائيل القديمة من المنظور التوراتي. لقد كان تاريخ فلسطين القديمة، كما يرويه الباحثون وعلماء الآثار التوراتيون، تاريخ اختلافات إثنية في الغالب وتقسيمات زمنية محكمة تقابل، على ما يفترض، الاختلافات الإثنية والمادية والثقافية. وغالباً ما كان مثل هذه التواريخ يلتصق ما يفرق ويجعل حصرياً،

ومن ثم يقدم المعرفة والدعم للدعاءات القومية الضيقة في الحاضر. وتمكّن إعادة التقويم الحالية للصورة التاريخية التقليدية التي تستند إلى التوراة، والتي يعنى بها المجلدان، من نشدان تاريخ متكامل لفلسطين يحتفل بقابلية شعوبها المحلية للتكيف وفق الزمن، ولا يكون سبباً للحصرية. ومن المؤمل أن يكون، في تحديه للتمثيلات الاستعمارية للماضي وحقه في امتلاك فلسطين، تاريخاً "يخدم في تحرير الإنسان لا في استعباده"، على حد قول جاك لوغوف (History and Memory [Columbia University Press, 1992], p. 99).

كيث و. وايتلام

أستاذ الدراسات التوراتية

ورئيس دائرة في جامعة

شفيلد في إنكلترا

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>